

## الدين والثقافة

د. محمد عبد العزيز ربيع

ان عدم قدرة الانسان الاول على اكتشاف وتفسير الجزء الاكبر من اسرار الكون والحياة عامة دفعه الى اكتشاف وخلق واعتناق اديان مختلفة قام معظمها على الخرافة . لكن حدوث التقدم وتطور العلوم جعل بإمكان الانسان تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية المحيرة للعقل ، وبالتالي تجاوز معظم الديانات القديمة . وبغض النظر عن طبيعته وعقلانيته لعب الدين ولا يزال يلعب أدوارا هامة ومتعددة في حياة الانسان ، وذلك من خلال تقديم تفسيرات مرضية لبعض اسرار الكون والحياة التي لا زالت بعيدة عن متناول العلم ، وإمداد الانسان بمنظومة شبه متكاملة من القيم والمعتقدات والشرائع المنظمة للسلوك والعلاقات الاجتماعية . وهذا ساهم بفاعلية في تنظيم حياة الانسان وجعلها اكثر أمنا واستقرارا من النواحي النفسية واكثر عدالة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

الى جانب ذلك ، قام الدين عامة ، خاصة قبل نشوء الدولة وفي عصور ضعفها وفقدان الثقة بها ، بدور القانون الاخلاقي الذي ساهم في تقديم بعض الخدمات الاجتماعية وتنظيم بعض أوجه الحياة في المجتمع التي كان من شأنها المساعدة على الحدّ من الفقر والجريمة والانحراف . وحيث ان الديانات جميعا تميل الى الادعاء بانها تمتلك حقائق ازلية من صنع آلهة ذات قدسية ، فان القيم والمعتقدات والافكار والتشريعات الدينية أصبحت جوهر الثقافة وبوتقة العلم . ولما كانت الحقائق الموحى بها من قبل الالهية ثابتة وغير قابلة للنقض ، فان الثقافة عامة اصبحت اكثر ميلاً للثبات والجمود وضعيفة القدرة على التطور والتحول تمشيا مع التطورات الاقتصادية والتكنولوجية في المجتمع ، كما أصبح العلم عموما يدور في فلك التفسيرات الدينية والمعتقدات الغيبية .

قامت الديانات في تفسيراتها لاسرار الكون والحياة عموما بدعوة الانسان الى التأمل في الحياة وليس الى التجربة العملية لاكتشاف قوانين الحياة ، والى اللجوء الى التخيل وليس الى التفكير الواعي ، والى الخوف من الخطأ وليس الى التعلم من الخطأ ، والى الاستسلام لما بعد الحياة والعقل وليس الى التمتع بالحياة والاعتماد على العقل . وهذا قاد الى سيطرة الدين على العلم ، وادى إلى خلط العلم والخرافات والاساطير الشعبية والدين بعضها ببعض ، خاصة وان الكثير من الخرافات والاساطير كانت قد ظهرت وانتشرت كمعتقدات ومقدسات قبل ظهور الديانات . وهكذا أصبح من المتعذر معرفة ما هو ديني وما هو خرافي ، وجعل من المحذور أحيانا قيام العلم بالبحث عن الحقيقة في ثنايا المفاهيم الغيبية والاساطير الشعبية السائدة .

ونتيجة لذلك أصبح البسطاء من عامة الناس اكثر قابلية لتصديق ادعاءات وخرافات لايمكن التأكد منها او اثباتها علميا ، و اقل قابلية لتصديق أشياء واحداث يمكن مشاهدتها واختبارها والتأكد من صحتها عملياً .  
ومع تجذر المعتقد الديني في المجتمع وقيامه بدور العنصر المنظم للثقافة الشعبية أصبح من الصعب على الثقافة والعلم ان يتطورا بالسرعة المطلوبة لمجارات التطور التكنولوجي الذي يتصف عامة بالديناميكية والحيادية الدينية والثقافية والسياسية . كذلك أصبح من المحذور على العلم والعلماء والمفكرين في الكثير من الاحيان والحالات المغامرة في بحار قد تقودهم الى اكتشاف اسرار كونية او حقائق حياتية تتناقض مع المعتقدات الدينية الغيبية . ولقد ترتب على هذا تعثر مسيرة المعرفة العلمية بوجه عام ، وتباطؤ عملية التطور التكنولوجي المؤسس على العلم وقوانينه بوجه خاص ، وجمود الثقافة وتقدمها الى حد بعيد . لكن العلماء والمفكرون ورجال الاقتصاد والسياسة واجهوا تحدي المؤسسة الدينية في عصور النهضة الاوروبية وخاضوا حربا طاحنة ضد الكنيسة الكاثوليكية كانت نتيجتها هزيمة الكنيسة وتعاليمها الاقتصادية وممارساتها الدنيوية بعد حروب دينية دامية دامت ثلاثين سنة وانتهت في عام 1648 بتوقيع معاهدة وستفاليا التي نصت ، بين أشياء أخرى ، على فصل الدين عن الدولة . ولقد ترتب على ذلك تحرر الفكر والعقل ، وانطلاق العلم نحو تحقيق المزيد من التقدم ، وتراكم المعرفة ، وتسارع وتيرة التطورات التكنولوجية والتحويلات الاجتماعية في معظم الدول الاوروبية . ورغم تحالف جهات عدة ضد الكنيسة ، فان التحدي الفكري الذي جاء من داخلها كان العامل الالم الذي قاد الى هزيمتها وتسبب في تقويض نفوذها السياسي وإختصار دورها المجتمعي .

ان قيام النهضة الاوروبية بمواجهة التحدي الديني الكاثوليكي وصولا الى تحرير العقل والفكر والعلم والاقتصاد لم يكن بالامكان حدوثه في حينه لولا الانجازات العربية الاسلامية ، خاصة في علوم الرياضيات والكيمياء والقانون والفلسفة . لكن ، بينما كانت اوربا تنهل من روافد العلم العربية وتؤسس عليها صرح نهضتها ، كان العرب يدخلون نفق الخلافات السياسية ويغرقون في بحار الخرافات والشعوذة باسم الدين ، ويبتعدون عن حكمة العقل ورأي العلم وأصول التعامل مع الاشياء والاحداث بعقلانية . وهذا يعني انه بينما كانت الشعوب الاوروبية تتقدم بثبات وعزيمة نحو الامام وتقوم بالاستيلاء تدريجيا على عملية صنع التاريخ الحضاري للانسانية ، كانت الشعوب العربية والاسلامية عامة تخرج من التاريخ الحضاري لتعيش على هامشه قرونا لم تنتهي بعد .

ان تحرير الفكر من الكبت السياسي وتحرير العقل من الخرافة كانا مفتاح التقدم العلمي والتطور التكنولوجي والتراكم المعرفي عبر العصور . ولقد تسببت تلك التراكمات والتطورات المعرفية في إيصالنا الى ما نشهده اليوم من عولمة تشمل كافة نواحي الحياة : الاقتصاد واسواق المال والاستثمار والتجارة

والثقافة والاعلام والعلم والتعليم، وحتى الارهاب الذي يستخدم العلم وتكنولوجيا العصر لتدمير روح العصر وتشويه معنى التواصل والتلاحق بين الثقافات والتسامح بين الشعوب . الا انه رغم العولمة وما تحقق لبعض الشعوب من حريات سياسية واجتماعية وتقدم علمي وتكنولوجي ونهضة اقتصادية ، فان تلك الانجازات الحضارية الباهرة لا زالت بعيدة عن حياة وطموحات الكثير من الشعوب الاخرى ، ومن بينها بالطبع الشعوب العربية والاسلامية .

حين كتب عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر عن دور الدين في تطور الثقافة وتقدم المجتمع إنطلق من قبول فرضية القضاء والقدر ، وافر بقيام الخالق بإختيار البعض من عباده الصالحين لدخول الجنة . لكن فيبر قال ان المختارين من الناس من عباد الله الصالحين يعكسون في مسلكياتهم صفاتا سمحة وأخلاقيات عالية وهبها الله لهم وإختارهم على اساسها لدخول الجنة . وهذا يعني ان التعرف على عباد الله الصالحين والمختارين ممكن من خلال مراقبة اعمالهم وتصرفاتهم وتتبع مواقفهم واقوالهم . والى جانب ذلك ، قال فيبر ان الجد والمثابرة والتفاني في العمل والاخلاص في إتقانه وعدم الاسراف تاتي في مقدمة الاشياء التي دعى الله عباده الى القيام بها . وهذا فرض بالتالي على كل شخص اراد ان يبرهن على كونه من المختارين ان يسلك سلوكا حسنا وان يرضي الله والناس فيما يقول ويعمل وينتج . ان إتجاه فيبر الى التوفيق بين العقيدة الدينية القائمة على الايمان بالغيب ، والحاجة المجتمعية للاخلاص والامانة والصدق ، والضرورة الاقتصادية للمثابرة والعمل الجاد والابتعاد عن الاسراف من اجل التوفير والاستثمار جعل من السهل على رسالته ان تجد آذانا صاغية ، وان تلاقي القبول والترحاب من مختلف قطاعات الشعب وقياداته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

انني اعتقد جازما ان من الممكن استخدام منطق فيبر لبدء عملية اصلاح ثقافي تنال القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد والمسلكيات السلبية السائدة في المجتمع العربي ، وذلك دون ان تلمس مبادرات الاصلاح جوهر القيم الدينية المترسخة في النفوس . وفي الواقع ، يمكن القول ان مبادئ ماكس فيبر ليست الا افكارا مقتبسة من التراث الاسلامي والاحاديث النبوية التي تدعو الى الصدق والاخلاص وإتقان العمل وعدم الاسراف والابتعاد عن التبذير وطلب العلم وإحترام الوقت وعمل الخير وخدمة الصالح العام . وهذا يعني ان الارتكاز الى جوهر الدين ، وليس الى شعائره ورموزه ، من الممكن ان يساهم مساهمة فعالة في إصلاح اوضاعنا الثقافية وتاهيلنا للعيش والتعايش مع العصر دون المساس بمعتقداتنا الدينية .

professorrabie@yahoo.com

لنشر يوم 6-9-2005

www.yazour.com